

السودان و بلاد الحبشة في فترة سلطنة الفنج

أيفور جيراسيموف

جامعة سانت بطرسبورغ الحكومية- روسيا الفيدرالية

مستخلص:

من المعلوم أنه كانت توجد علاقات مستقرة للدول التي أنشئت بالأراضي السودانية مع سكان إفريقيا الغربية حيث كانت موجودة لفترة طويلة والدليل على ذلك الحجاج من أصول أفريقية الذين بقوا في السودان ومعروفون الآن باسم الفلاتة. عندما نشأت الممالك المسيحية في السودان جرت الاتصالات بين النوبة المسيحيين و بين النصارى في الحبشة و لكن من الصعب ان نعرف حجم وطابع هذه الاتصالات بسبب عدم وجود المعلومات الكتابية الكافية خاصة المخطوطات السودانية. تم تقليص العلاقات والاتصالات بينهما بعد انتشار الاسلام في السودان وانقسام و تفتت الدول المسيحية وتفتتها. و يمكننا ان نتعرف على نوع هذه العلاقات وطابعها من عدة مصادر و منها:

«The Royal Chronicle of Abyssinia (1769-1840)»

E.J. Van Donzel «A Yemenite Embassy to Ethiopia 1647-1649: Al-Haymi's Sirat Al-Habasha ; newly introd., transl. and annot.», Stuttgart., 1986,.

P.M. Holt «The Sudan of the Thee Niles. The Funj Chronicle 910-1288/1504-1871», Leiden, Boston, Köln., 1999 .

وهذه المصادر المذكورة أعلاه هي أهم و أكبر حجما من المصدرالسوداني الذي يحتوى على معلومات عن أثيوبيا وهو كتاب الطبقات في خصوص الاولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان لود ضيف الله ، الخرطوم 1974 وتوجد فيه معلومات تستحق الاهتمام حول العلاقات مع الحبشة وتأثيرها في السودان. و بالطبع يتكون كتاب الطبقات من سير حياة الصالحين السودانيين و لكن بالإضافة إلى ذلك يوجد فيه وصف للخدام الأقباش و خصائص الزي الحبشي. كما توجد فيه أخبار عن التبادل التجاري و لكن لا توجد أخبار عن تطور التجارة عبرمراسي البحر الاحمر. و نعرف من الطبقات عن حروب جرت بين سلطنة الفونج و مملكة الحبش...الخ

يبقى ظهور بعض المصطلحات المتعلقة بالحبش غير واضحة ويصعب فهمها حتى يومنا هذا.

كثيرا ما يطرح سؤال حول وجود علاقات مستقرة بين الدول التي أنشئت بالأراضي السودانية وسكان إفريقيا الغربية. كانت هذه العلاقات موجودة منذ زمن طويل والدليل على ذلك الحاج أفريقيو الأصل الذين بقوا في السودان ومعروفون الآن باسم الفلاتة.

بعد إنشاء الدول المسيحية على أرض السودان جرت الاتصالات بين النوبة المسيحيين وبين النصاري في الحبشة ولكن من الصعب أن نعرف حجم وطابع هذه الاتصالات بسبب عدم وجود المعلومات الكتابية الكافية خاصة المخطوطات السودانية لكن يوجد كتاب منسوب لكاتب شماس هو موهوب بن منصور بن مفرج (م 1088) واسمه "كتاب سير الآباء البطارقة". وصف فيه العلاقات بين الكنيستين في بلاد النوبة والحبشة وقال: "...وفي أيامه أنفذ ملك الحبشة إلى ملك النوبة واسمه جرجس وعرفه ما أدبه الرب به هو واهل كورته و ذلك جزاء عما كان الملك الذي قبله فعله مع البطرك أنبا قزما بسبب المطران وسأله أن ينفذ إلى الأب البطرك رسالة أن يحالهم وينعم لهم بقسمة مطران فلما وصلت الكتب إلى ملك النوبة أرسل من جهته رسلا إلى البطرك ابنا فيلوتوس يسأله ان يتأرف عليهم فأجاب سؤاله ورسم لهم راهبا من ديرأبي مقار اسمه دانيال وأنفذه لهم وقبلوه بفرح..." (Arabskiye istochniki X-XII vekov c. 200-201)

ويدل هذا النص على القوة والأهمية التي كان يتمتع بها ملك النوبة وأنه كان يلعب دورا مهما كوسيط بين الحبشة ومصر.

ولكن بعد أن صارت سلطنة الفنج دولة كبيرة وإسلامية انقطعت العلاقات الدينية بينهما تماما، أما العلاقات الاقتصادية فكانت ضعيفة. ومن المعروف أنه توفرت لبعض الشخصيات السودانية إمكانية التعامل مع السلطات في الدولة الحبشية ولكن ليس لمصلحة دولة الفنج. ونعرف ذلك من الأخبار التي أعطاها المصدر اليمني. يذكر الخيمي وهو مندوب من اليمن أرسلوه إلى الحبشة لأغراض دبلوماسية (1647-1649) إن ممثل الدولة العثمانية عند البلاط الحبشي كان الأمير عبد الوهاب وهو من مدينة سواكن وكان يخدم كوكيل لعهد باشا التركي الذي كان حاكما لسواكن ومصوع وتعامل باسمه مع نجاشي الحبشة مباشرة. (Van Donzel 1986) ص. 62

ويمكننا أن نفترض أنه لم يكن يعتبر شخصية دبلوماسية فحسب بل المترجم الذي كان يعرف الوضع وحقيقة الأمور بشكل جيد.

بالنظر إلى الاتجاهات الرئيسية في سياسة الفنج فإنه لم تكن لها اهتمامات كبيرة الحجم بالحبشة إلا الغزو من أجل الحصول على العبيد في المناطق غير البعيدة عن حدود الحبشة المعاصرة. ويبقى السؤال المطروح الذي لا توجد له إجابة لماذا ومن أين ظهر المصطلح المحلي "المكادة"

المستخدم للدلالة على العبيد الأحباش. لو أخذنا بعين الاعتبار المصادر المتوفرة لدينا من القرن التاسع عشر المنسوبة لبريم الباحث الألماني نجد أنه استعمل هذا المصطلح مرات عديدة في كتابه الذي درسه العرب والأتراك وهم استعملوا نفس الكلمة نفسها من بعده . توجد العديد من الآراء حول هذا الموضوع فربما سمى العرب إحدى القبائل التي كانت تسكن في الحدود بين السودان وإثيوبيا بهذا الاسم ومع مرور الزمان صارت هذه القبيلة جزءاً لقبيلة أخرى واسم هذه القبيلة كان هو الأكثر تداولاً. ثانياً: ربما قُتل أعضاء قبيلة "المكادة" و لكن اسمها بقي في ذاكرة الناس مثلما كانت مع قومية التتار في منغوليا. كان اسم التتار يستخدم لاحدى القبائل المنغولية والصينيون كتبوا الهيروغليفية الخاصة بهذه القبيلة ثم قتل جنكيز خان كل أعضاء هذه القبيلة ولكن حفظ الصينيون هذا الاسم والهيروغليفية وصاروا يستخدمونه عندما يجري الحديث عن كل القبائل التي دخلت الصين من منغوليا. ومن هناك انتقل هذا الاسم من الصينية إلى اللغة الروسية ويستخدم حتى الآن. وثالثاً يمكن أن يكون هذا الاسم من الأسماء التي سمى به أعضاء القبيلة المعينة أنفسهم في فترة ما قبل انتشار الإسلام في السودان. وبعد الفتوحات العربية أخذ العرب يتداولون هذا الاسم وبمرور الزمن نسي السكان المحليون الاسم وحفظه العرب .

وربما كان هذا الاسم مستخدماً لقبيلة محلية أخرى مثلما أنّ النوير قد سموا الأحباش ب "الفوني" ويمكن أن تكون قبيلة ما قد استخدمت هذا الاسم فترة طويلة ثم اقتبسته القبائل الأخرى منها. الأحباش المعاصرون لا يعرفون هذا المصطلح وبحث عنه في اللغة الأمهرية ولكني لم أجده. أما في كتاب الطبقات فيذكر "المكادة" في عدة أماكن. ويكتب كاتب عنهم أنّهم كالعبيد ولكنهم يدعمون الناس البسطاء وفي بعض الأحوال يظهر الأسياد احترامهم للمكادة. مثلاً في سيرة الحياة عند حسن بن حسونة بن الحاج موسى نجد أنهم مستعدون للتعامل ويقدمون المساعدة: قال الفقيه عبد الصادق ولد حسيب العالم المشهور :أرسل إلى الشيخ حسن بالقدوم إليه قال أسألك عن مسایل . قال : فسافرت إليه فوجدته غائباً . قالوا شال الخلا يتعبد فيه . نزلنا عند المكادى ، بعد أيام سمعت الهمرجة في الحلة والزغاريت قالوا جاء الشيخ وخرجنا للفرجه. قال جاء رجل قصير، أصلع له قرون لابس فردة دمور شایل في يده مشكار شق الناس دخل الحوش. فلما زالت الشمس ضربوا النقاير فلما برد النهار ختوا فرشة رومية كبيرة فوق الدكة: دكة الديوان. ثم جاء لابس قميص متعالى كبير فقعد فوق للفرشه. فقامت العبيد شالين العكاكيز للسلام: أنا فلان قال فلان. قال سيدي. فلما فرغوا قامت الفقراء سلمت. ثم قام أرباب الحوائج سلموا وتكلموا . ثم جاء المكادى قال يا سيدي جات امرأة عندها بنت مريضة بتدور لها العافية...". (ابن ضيف الله، ص. 14)

وفي قطعة تالية من النص الخاص بهم عندما يجري الحديث عن الرجال المسلحين نجدهم يتميزون على غيرهم من الجند بسبب امتلاكهم السلاح الناري. في سيرة حياة حسن بن حسونه بن الحاج موسى: "فسافر إلى سنار تجنب في وجهه ثلاثة وأربعين جنياً، سروجها مخترتية وثلاثة كراديس قدامهم، والمكاده الشايلين البندق ثلاثة واربعين ، وجمال البديد سبعين وكلها جنائب في وجهه، وهو راكب على جمل بطانة حبل. فلما جاء في طرف الدبة خرج الخطيب والقاضي والمقاديم لنزولهم. بادی طلع فوق الراوه يتفرج فيهم." (ابن ضيف الله، ص. 146).

لا تتوفر معلومات كافية حول سلوك العبيد السيئ باختلاف أصولهم في نص في كتاب الطبقات يذكر الكاتب ان أحد المكادة قد قتل ملكاً من ملوك سنار وهو بادي أبو دقن الذي حارب الشلك وتغلا وكذلك الحبشة. وكان منتصراً في كل الحروب والذي كان قد نقل الجهادية من جبال النوبة إلى القرى حول سنار. وفي هذا الصدد يمكن الرجوع لسيرة أحمد النحلان بن محمد البديري المشهور بابن الترابي:

"فارسل ميرف حوار له امشى في سنار قول المهجي نزل فأمر الملك بادي أبو دقن بقتله وجره. فارتعدت السماء وأبرقت، وأصابهن مطر شديد هدم البيوت، وسالت السيول في غير الوقت. وخور أم خنيجر الموجود الآن مجر جنازة ميرف. وفي تلك الأيام الملك قتل، ضربه المكادي بحربة...". (ابن ضيف الله، ص. 165).

من الطبقات وهو من أهم المصادر عن تأريخ السودان نعرف أنه كانت توجد بعض البضائع مثل العطور تصدر من الحبشة إلى السودان. وكانت لها شهرة. هناك نص في كتاب الطبقات يدل على ذلك. نأخذ مثلاً سيرة خوجلي بن عبد الرحمن بن إبراهيم فقد قال ابن ضيف الله: "ومن أخلاقه تمسكه بالكتاب والسنة ومتابعة السادة الشاذلية في اقوالهم وافعالهم. وكان يلبس الثياب الفاخرة مثل البصرأوى الاخضر وعلى راسه الطربوش الاحمر ويتعمم بالشيشان الفاخرة، وينتعل الصرموجة ، ويتبخر بالعود الهندي ويتعطر يجعل الزباد الحبشي في لحيته وثيابه. يفعل ذلك اقتداء بالشيخ ابو الحسن الشاذلي واطهارا لنعمة الله تعالى ليحمده على ذلك. وقيل له إن القادرية إنما يلبسون الجيب والمرقعات. قال: ثيابي تقول للخلق أنا غنية عنكم وثيابهم تقول أنا مفتقرة إليكم." (ابن ضيف الله، ص. 194).

انعكست الاتجاهات الأساسية لسياسة الدولتين على طابع العلاقات بينهما. من المعروف أنه كان يوجد تأثير للصراعات في انتشار النفوذ بين سلطنة الفنج وأثيوبيا تسببت في نشوب الحرب بينهما في فترة حكم بادي أبو شلوخ. بدأ الحرب لياسو (1730-1755) وهو أمبراطور

حبشي. وحسب المصادر السودانية فقد التقى الامبراطور مع القاضي المسلم قبل بداية الهجوم وحاول أن يثنيه عن عزمه . ولكن أهمل الامبراطور نصائحه ودخل بجيشه أرض السودان. أما بادي ابو شلوح فقد استدعى جيوش الفور وعلى رأسها خامس ولد جنفل ودارت المعركة على ضفة نهر الدندر في مكان اسمه زكية في شهر نيسان (أبريل) سنة 1744 . لم يشارك الامبراطور في المعركة شخصيا ومان في الخيمة لحاله ولد لاول. وانتصرت جيوش الفنج على الحبشة ورجع بادي إلى سنار فائزا. وبعد مدة قصيرة بدأ الحرب ضد القبائل في كردفان وارسل الجيش إلى هناك. وهنا بدأت مرحلة جديدة في تطور الأحداث في سنار. كان محمد أبو لكليك قائدا للجيش في كردفان وبعض مقادير الجيش وخذوا قواتهم وانطلقت القوات ضد المك ووصلت إلى سنار وحاصرتها. ووعده ناصر ابن بادي ابو شلوح بمساعدة القوى المعارضة لابييه.

و ضرب الحصار حول مدينة سنار ولكن المك بادي هرب من عاصمته بشكل سري. حسب المعلومات المستقاة من المصادر الشفهية ذهب بادي أولا إلى سوبا ثم إلى سواكن ومن ثم هرب إلى الحبشة. ووعده السلطات في اثيوبيا بتقديم الدعم والمساعدة لو أراد أن يعيد زمام سلطته. وأعجبته الفكرة وذهب من أجل تجنيد الجيش إلى ضفاف نهر عطبرة. وهناك قتله الشيخ ولد حسن. (شبكة، ص. 86).

في كتاب مترجم إلى اللغة الانجليزية عن تاريخ السلالات الحاكمة في الحبشة وهو " _رويال خرونكيل وف ابيسينيا" توجد معلومات عن بادي ولكن لا توجد أخبار خاصة بالحرب. شخصية ولدا ليول وهو احد الاعيان كذلك يذكر في الكتاب.

ص. 216-217), (The Royal Chronicle of Abyssinia (1769-1840)

وطبعا التقدير السوداني للأحداث يختلف عما كتبه الكاتب الحبشي القديم في كتابه. في الفترة التاريخية ما بين انتهاء دولة الفنج (1821) وثورة المهدي كان الجنود السودانيون يدخلون إلى الأراضي الحبشية من أجل الحصول على العبيد ولإنشاء المصانع لاستخراج الذهب وبعد حملة محمد علي على السودان أمر القائد المصري بوضع حاميات في أماكن مختلفة على طول الحدود مع الحبشة. وفي هذه الفترة زار ايغور كوفاليفسكي رئيس البعثة الروسية السودان وكانت لديه الفرصة لزيارة المناطق قرب الحدود بين الدولتين ودخل إلى الحبشة. وصف كوفاليفسكي في كتابه انطباعاته وآرائه عن القبائل المحلية وعن تجارة العبيد. وبفضله نتعرف أكثر عن حجم التبادل التجاري والثقافي بين السودان والحبشة. (Kovalevskiy 1849)

ويستمر وصف الاحداث التاريخية في الكتاب السوداني " الطراز المنقوش ببشرى قتل يوحنا ملك الحبوش" ولكن هذه الفترة هي بعيدة عن سلطنة الفنج

المراجع باللغة الانجليزية :

1. Van Donzel 1986- Van Donzel E.J. A Yemenite Embassy to Ethiopia 1647-1649: Al-Haymi's Sirat Al-Habasha ; newly introd., transl. and annot., Stuttgart., 1986.
2. Holt 1999- Holt P.M. The Sudan of the Thee Niles. The Funj Chronicle 910-1288/1504-1871», Leiden, Boston, Köln., 1999.
3. Arabskiye istochniki 1965 - Arabskiye istochniki X-XII vekov po etnografii i istorii Afriki yuzhnee Sakhary (podgotovka teksta I perevody V.V. Matveeva, K.T. Kubbelia) Moskva-Leningrad, 1965.
- 4.Kovalevskiy 1849-Kovalevskiy E.P. Puteshestvie vo Vnutrennuu Afriku. Sankt-Peterburg., 1849.
- 5.Brem 1958-Brem A. Puteshestvie po severo-vostochnoi Afrike ili po stranam podvlastnim Egiptu: Sudanu, Nubii, Sennaru, Rosseresu I Kordofanu. Moskva, 1958.

المراجع باللغة العربية:

- ابن ضيف الله،

كتاب الطبقات في خصوص الأولياء و الصالحين و و العلماء و الشعراء في السودان لابن ضيف لله ، الخرطوم 1974

- اسماعيل عبد القادر الكردفاني، الحرب الحبشية السودانية 1885-1888 (الطراز المنقوش ببشرى قتل يوحنا ملك الحبوش) بيروت ، 1991.

مكى شبكية، السودان عبر القرون. بيروت